العرب
الخميس 2019/10/24
السنة 42 العدد 11507

قيس سعيّد: بلاغة اللغة والعاطفة في مواجهة تحديات كبرى

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

جمع الرئيس التونسي الجديد قيس سعيّد في كلمته أمام برلمان بلاده أمس بين بلاغة اللغة وبلاغة العواطف. كان النص مترف الإيقاع بما يتجاوب مع لكنة صاحبه وجهورية صوته، وكانت العواطف مسيطرة على المضمون، بشكل جعل الكلمة أقرب ما تكون إلى بيان زعيم شعبي أثناء تسلّمه الحكم بعد ثورة قطعت مع ما سبقها.

يبدو واضحا أن الرئيس هو من كتب كلمته بنفسه، وكان صارما في اختيار مفرداته الأولى التي واجه بها الداخل والخارج بعد أدائه القسم، فهو يدرك أن كل كلمة لها أهميتها القصوى في مثل هذه الظروف وفق معايير فهمها لدى الأطراف المتلقية، وهذا ما جعله يحسب حسابا دقيقا للعبارات، وحتى للفواصل والنقاط، وهو أمر منطقي بالنسبة لأكاديمي في مجال القانون الدستوري، ولرجل صاحب رؤية سياسية وثقافية، وكذلك لرئيس دولة يحيط الغموض بشخصه ومرجعيته الفكرية وبالطريقة التي أدار بها مشروعه للوصول إلى أعلى هرم السلطة في بلاده من خارج الأحزاب والدولة ومنظومة الحكم والطرائق التقليدية في العمل السياسي.

وأمام ممثلي الشعب، عمل سعيّد على طمأنة عموم التونسيين بأن "تونس دولة مستمرة بمؤسساتها لا بالأشخاص الذين يتوالون على إدارتها، والدولة التونسية ملتزمة بكل معاهداتها الدولية"، وكذلك التأكيد على أن "المسؤولية الأولى لرئيس الدولة هي أن يكون رمزا لوحدتها وضامنا لاستقلاليتها واستمراريتها وساهرا على احترام دستورها، وعليه أن يكون جامعا للجميع وعليه أن يعلو فوق كل الصراعات الظرفية والضيقة".

لكن ما يمكن استشفافه كذلك، أن سعيّد كان يستبطن في كلمته ما ينتظره منه أنصاره، وخاصة في ما يتعلق بتحقيق آمال التونسيين في الحرية والكرامة وعلوية القانون ومسؤولية حمل أمانة الدولة والفقراء والبؤساء وأمانة ابتسامة الرضيع في المهد، ومقاومة الفساد حيث "لا مجال للتسامح في مليم واحد من عرق أبناء الشعب"، وحماية الثروات وإمكانية تطوير تعهدات الدولة مع الخارج في المسار الذي يخدم مصالحها، إلى جانب التركيز على الشهداء وحقوقهم.

كان نص الخطاب مترف الإيقاع بما يتجاوب مع لكنة صاحبه وجهورية صوته، وكانت العواطف مسيطرة على المضمون، بشكل جعل الكلمة أقرب ما تكون إلى بيان زعيم شعبي أثناء تسلّمه الحكم بعد ثورة قطعت مع ما سبقها

كما أن الرئيس الجديد حافظ على طوباويته بمخاطبة أنصاره بإمكانية أن تفيض خزائن الدولة وتتخلص البلاد من التداين والاقتراض بمجرد أن يتبرع التونسيون بأجرة يوم عمل شهريا ولمدة خمس سنوات، انطلاقا من قناعته بأن "التونسيين والتونسيات في حاجة فقط إلى علاقة ثقة جديدة بين الحكام والمحكومين، وليساهم الجميع في هذه العلاقة التي افتقدوها منذ زمن بعيد".

ولعل سعيّد أراد بهذا المقترح أن يخاطب أصحاب حملة "عودة الوعي" من الشباب المتطوع لتنظيف الشوارع والساحات، ولمن يرفعون الكثير من الشعارات التي سيكون الزمن كفيلا باختبارها، فالناس عموما عاطفيون وقد يندفعون لتبني فكرة عظيمة والعمل بها، ولكن إلى حين ثبوت تأثيرها الفعلي في حياتهم، وهذا التأثير في نظام كالقائم في تونس حاليا سيكون وليد جهود الحكومة والبرلمان الفاعلين الأساسيين في البلاد، وليس لرئيس الدولة إلا ما يتصل بصلاحياته في تشكيل أو إدارة تلك الجهود.

بالمقابل تحدث سعيّد عن تعهده بصيانة الحريات، لكن دون أن يحدد المقصود منها، هل هي الحريات العامة أم العامة والخاصة، خصوصا في ظل مواقفه المعلنة سابقا من بعض الفئات، لكنه عمل على طمأنة المرأة بأن لا مساس من حقوقها التي ستشهد المزيد من الدعم خاصة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

ولعل من مفاتيح كلمة الرئيس التونسي الجديد ما تضمنته من الإشارة إلى "أن من يريد الرجوع بالتونسيين إلى الوراء يلهث وراء السراب ويسير ضد التاريخ"، وهي جملة تحتمل الكثير من التأويلات، وما إذا كانت تعني التاريخ القريب أم البعيد. هل تعني مثلا رغبة جانب من الإسلاميين في العودة إلى الخلافة، أم رغبة جانب آخر منهم في العودة إلى الدولة الشمولية تحت غطاء الدين، أم عودة الدكتاتورية والاستبداد؟ أم أنها كلمة سر موجهة لأنصاره بأنه بصدد طي صفحة الماضي بكل تفاصيله في اتجاه مشروع سياسي جديد يعمل على ترسيخه خلال فترة حكمه.

سعيّد كان صارما وحازما في موقفه من الإرهاب، فمن سيطلق رصاصة سيقابل بوابل من الرصاص، هذا الموقف يشير إلى أن على المتشددين أو من يبحثون عن توافقات معهم، أن يدركوا جيدا ما ينتظرهم. الرصاصة قد تخرج من بندقية إرهابي لكن الوابل من الرصاص سيستهدف الإرهابي ومن يقف معه ووراءه.

من الإشارات الغامضة التي وردت في كلمة سعيد تأكيده على أن المنظمات الوطنية هي قوة اقتراح، دون أن يحدد تلك المنظمات رغم أنه من الواضح أنه يعني بالأخص الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد العام التونسي للصناعة والتجارة واتحاد الفلاحين واتحاد المرأة التونسية، رغم أن اتحاد الشغل مثلا لا يكتفي بدوره ككتلة اقتراح، وإنما هو قوة فعل أساسية في البلاد، الأمر الذي جعله في مرمى انتقادات بعض الأطراف وعلى رأسها قوى الإسلام السياسي، وبعض من يحسبون أنفسهم على مناصرة الرئيس الجديد.

وتابع أن آمال التونسيين كبيرة وحقوقهم مشروعة وليس لأحد الحق في أن يتجاهلها أو يتناساها، قائلا "من الرسائل التي يجب توجيهها من هذا المنبر ومن هذا المكان أن تونس دولة مستمرة بمؤسساتها لا بالأشخاص الذين يتوالون على إدارتها، والدولة التونسية ملتزمة بكل معاهداتها الدولية وإن كان من حقها المطالبة بتطويرها في المسار الذي يخدم مصالحها، وأهم من المعاهدات المكتوبة والبنود والقصور هو التفاهم بين الأمم والشعوب من أجل الإنسانية جمعاء".

في كلمته تجنب قيس سعيّد التطرق إلى موقفه من مجمل القضايا والملفات الإقليمية والدولية ما عدا القضية الفلسطينية التي تحدث عنها بتدفق عاطفي، من دون أن يوضح موقفه مما نسب إليه سابقا من الحديث عن أن بلاده في حرب مع إسرائيل، بالإشارة إلى أن المعركة ليست مع اليهود الذين كان التونسيون قد حموهم خلال الحرب العالمية الثانية، لافتا إلى موقفه "ضد الاحتلال وضد العنصرية وضد احتلال تواصل لأكثر من قرن"، وهو موقف حقوقي أكثر منه سياسي، أي دون إشارة إلى الحل الذي يمكن أن يتحقق على أرض الواقع، كأن يكون الدفاع عن مبدأ دولة فلسطينية في حدود العام 1967 وعاصمتها القدس، وهو المبدأ الذي يستند إلى خيارات السلطة الفلسطينية والشرعية الدولية.

كلمة سعيّد كانت بليغة اللغة والعواطف، لكنها لم تطرح أية حلول، ولم تصرح بكيفية مواجهة التحديات الكبرى التي تواجهها البلاد، يمكن تفهم ذلك باعتبارها صادرة عن رجل يطرق لأول مرة أبواب الشأن العام والعمل السياسي والوظيفة على مستوى إدارة الدولة، ولكن الأيام القادمة ستكون كفيلة بفهم ما سيتم الاعتماد عليه في ترجمة طوباوية الرئيس الجديد إلى فعل حقيقي على أرض الواقع بتشعباته المختلفة.

الجزائر.. الحضور الأفريقي الباهت

أزراج عمر
كاتب جزائري

هل في حوزة الرئيس الجزائري المؤقت، عبدالقادر بن مصالح، شيء يقدمه إلى الأفارقة في القمة الأولى روسيا- أفريقيا التي بدأت أشغالها في مدينة سوتشي الروسية الأربعاء 23 أكتوبر الجاري وتنتهي يوم 24 منه؟ ثم ما هو جدوى المشاركة الجزائرية في هذه الندوة أصلا في الوقت الذي تشهد فيه البلاد هزة عنيفة شاملة تنذر بنهاية درامية على المستوى السياسي والاقتصادي معا، وتحيط بشرعية الجهاز الحاكم حاليا عدة علامات استفهام؟

وفي الواقع فإن النظام الجزائري ليس له أي دور محوري له فرادته وتأثيره في أفريقيا على مستوى العلاقات الثنائية، أو ضمن صيغة الاتحاد الأفريقي، لأن الجزائر لا تحتل أي موقع اقتصادي أو ثقافي أو سياحي في العمق الأوروبي رغم رفع هذا النظام للشعارات الجوفاء التي لا نجد لها أثرا في الواقع الأفريقي الرسمي أو الشعبي. وهنا نتساءل ما هي هذه الإمكانيات الثقافية والعلمية والاقتصادية التي تملكها الجزائر والتي يمكن أن تمارس بواسطتها تأثيرا إيجابيا يخول لها أن تكون لاعبا أساسيا في القارة السمراء باستثناء التبعية للنظام الرأسمالي المتوحش الذي ترفضه معظم بلدان أفريقيا، وغياب الاستقرار في داخل البلاد في ظل استمرار الحراك الشعبي الذي يرفض وجود هذا النظام أصلا؟

الملاحظة الأولى التي ينبغي أن تسجل في هذا الخصوص تتمثل في أن موقف الجزائر ضعيف في هذه القمة لأسباب كثيرة وهي نتيجة لكون النظام الجزائري عاش على ذلك التراث القديم الذي ربط الجزائر بأفريقيا في عهد الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، ولكن ذلك التراث لم تتجدد دماؤه حيث لم يبق منه الآن سوى بعض الأصداء الشاحبة التي يكاد يطويها الزمان.

وفي هذا السياق ينبغي التذكير بأنه في بداية استقلال الجزائر سعى الرئيس الراحل هواري بومدين إلى دعم النشاطات الثقافية الجزائرية – الأفريقية، ولتحقيق ذلك بادر بعقد الأسبوع الثقافي الأفريقي في الجزائر غير أن تلك المبادرة اختزلت في ما بعد في استغلال النظام الجزائري لمواقف بعض الدول الأفريقية واستخدمها كورقة ضغط في الأزمات الإقليمية بشكل براغماتي مكشوف.

أما في المرحلة التالية لوفاة بومدين فقد قام الرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد بكسر أبرز القيم التي ناضلت من أجلها قارة أفريقيا طوال عهود الاستعمار الغربي مثل مشروع فك الارتباط مع موروث النظام الاستعماري ومختلف أبنيته الاقتصادية والثقافية والاجتماعية. والأدهى أن الجزائر قد تورطت في عهد بن جديد في رمي المجتمع الجزائري بين مخالب الجانب المظلم والعدواني من الرأسمالية المستوردة من أوروبا، وجراء ذلك تراكمت المديونية وغرقت البلاد في مستنقع التبعية لصندوق النقد الدولي وترتب على ذلك هتك أسلوب الإنتاج الأفريقي الذي كانت الجزائر تنتمي إليه ثقافيا وتنظيما اجتماعيا وسلوكا أخلاقيا.

سقوط شبح الحزب الواحد في تونس هو جرعة قوية للحراك الجزائري للمضي قدما في نضاله الوطني المشروع حتى تحقيق النصر الشعبي على النظام الحاكم في الجزائر وأجهزته وأحزاب الموالاة التي تنطق باسمه

زيادة على ذاك فإن حلم إنشاء قطب مغاربي موحد يكون نواة لبناء معمار القطب الأفريقي المؤثر اقتصاديا وثقافيا وسياسيا قد ذهب أدراج الرياح. في ثمانينات القرن الماضي حاول اتحاد الكتاب الجزائريين، خارج أطر النظام الجزائري، أن يؤسس لبدايات الانفتاح على الفضاء الأفريقي ولقد تحقق بعض من ذلك في صورة ندوة الحوار الثقافي العربي/ الأفريقي التي انعقدت بالجزائر في فترة 1983–1982، وفي تبادل وفود الكتاب والأدباء، وفي التنسيق داخل اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا ولكن هذه المحاولات لم تتطور إلى تأسيس جبهة ثقافية أفريقية موحدة، كما لم يتحقق مشروع إدراج الإنتاج الثقافي والفكري والفني في المناهج التعليمية الجزائرية والأفريقية. ولقد حصل هذا جراء انعدام إرادة سياسية للدولة الجزائرية في هذا المجال، فضلا عن فقدان الدعم المادي والأدبي في الميدان العملي من طرف وزارة الثقافة بشكل خاص ووزارات الإعلام والخارجية والتعليم بكل أنماطه إلى جانب غياب فعاليات مؤسسات المجتمع المدني بشكل عام.

رغم هذه الإخفاقات المتتالية وجدنا النظام الجزائري يروج لصورة زائفة عنوانها الكبير أن الجزائر تحتل مكانا مرموقا في العمق الأفريقي، غير أن الواقع يدحض مثل هذه المزاعم، وما يؤسف له أن الدبلوماسية الجزائرية في علاقاتها بأفريقيا، سواء في ظل الرؤساء السابقين لعبدالعزيز بوتفليقة أو في عهده، لم تتأسس على الوازع الثقافي والفكري، وعلى مشروع التنمية الحديثة المشتركة مع بلدان أفريقيا. ونتيجة لذلك فإن جميع الملحقين الإعلاميين والثقافيين والاقتصاديين الجزائريين لم يحققوا شيئا يذكر سواء في مجال الثقافة والفكر والفن أو في مجال الاستثمار المتبادل يمكن مقارنته، مثلا، بحجم ثمار العلاقات الفرنسية–الأفريقية أو البريطانية–الأفريقية، أو الصينية–الأفريقية راهنا.

والخلاصة هي أن مكانة الجزائر في القارة الأفريقية في ظل النظام الجزائري بمختلف مراحله بعد وفاة هواري بومدين تتميز بأنها باهتة، ومن المستحيل أن يأتي أحد من بطانة هذا النظام ليبرهن على عكس هذا خاصة أن الوقائع تثبت يوميا أن الدول الأوروبية والغربية والصين ما فتئت تقصي الجزائر من تشكيل أي حضور جدي في الفضاء الأفريقي. علما أن فرنسا تسيطر على الجزء الأفريقي الفرنكفوني اقتصاديا وثقافيا ولغويا وعسكريا، وتهيمن بريطانيا على الدول الأفريقية الأعضاء في الكومنولث البريطاني. أما الصين فقد شرعت منذ عدة سنوات في الاستثمار المنهجي في الاقتصاديات الأفريقية، هذا ونجد إسرائيل تنحت مواقع لنفسها في بعض دول أفريقيا، وها هي روسيا تبحث عن موقع قدم في العمق الأفريقي، فهل تبقى شيء للجزائر أن تفعله؟

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk